مأساة ديمتريو

الصوت الأول

حنا مينة

صوت ـ ١

لا يمكن
لا يمكن
لا يمكن

« يا ديمتريو ، أقول لك لا يمكن ، أتفهم ؟ للمرة الألف ، هذا الشهر ، والذي قبله ، قلت لك لا يمكن ، أتفهم ؟».

صاح ديمتريو الآخر : « أنت تكذب أيها الوغد، يا جوّاب الآفاق ، تكذب وتعلم أنك تكذب ، فلماذا تتظاهر بما لا تؤمن ؟ حدّق بوجهك في المرآة . . ألا ترى وجهك ؟».

عبر المرآة، حدّق ديمتريو بديمتريو ، تحديقة خصمين متباغضين ومتلازمين ، حسناً ، قال أحدهما للآخر ، اتفقنا أنه لا يمكن. يجب أن نجزم ، هذه الليلة ، والى الأبد ، بأنه لا يمكن . لقد اقتنع كلانا ، باستحالة ذلك ، ومن الغد تتحوّل هذه القناعة الى سلوك ، كالذي كان ، قبل أن تكون هي ، قبل أن يكون اللقاء.

وفي هذه اللحظة، شعّ شيء ما ، في الجانب الأيسر من الصدر ، وترك إحساساً بالاختلاج كما يحدث تحت تأثير نزق عصبي ، عقب فكرة تمرّ بالبال ، أو صورة تهزّ الخاطر ، وللتأكد من السلامة مدّ ديمتريو الواقف امام المرآة، وكذلك دميتريو الذي في داخلها ، يده الى الجانب الأيسر من صدره وانتزع لفافة ورقيّة على شكل قلب ، فتحها ، ثم تحوّل الى المصباح ونظر فيها ، وإذ لم يجد شيئاً داخله سرور وراحة ، فراح يطويها ليعيدها الى مكانها ، فلما فعل ، لمح ظلالاً عليها . كانت في الورقة خطوط رفيعة لا تكاد تبين ، تزداد ارتساماً كلما ازدادت اقتراباً من الجسم ، وامّحاء كلما ابتعدت عنه . خُيِّل إليه للحظة أن الخطوط المستقيمة تنحني وتتلاقى في زاويتين حادتين جداً ، ثم ترتعش الخطوط، وتتجسم، ويرف من فوقها ألق ذكره بما كان قد رأى، يوماً، على ثغر المجدلية . وسمح الألق لنفسه بالانقسام لتتشكل من كل قسم شفة بلون زنبقة الحقل، تنفرجان عن أسنان برمرمية، كحصاة تحت رقارق بحيرة جبلية ، والحصاة تومض بهاء أبيض، حين تنشمر الشفة العليا ، مظهرة نتوءاً وردياً من اللحم الذي يصلها باللثة، ثم تتكور، في تقوس بدري، لتغدو، مع الشفة السفلى، محارة مرجانية تنشق عن تلك الحصاة اللؤلؤية .

صاح ديمتريو : «إنها هي إنها هي !» وأغمض عينيه مستسلما الى النشوة التي بعثتها الرؤية ، شاعرا ، الآن ، بالعجز ، عن مقاومتها. لقد تضعضعت إرادته . والقناعة التي توهّم انها حصلت تزعزعت ، وسلوكه من الغد، لن يكون كما كان، قبل ان تكون هي، قبل ان يكون اللقاء.

فتح عينيه خائفاً ، كارهاً أن يرى ديمتريو الآخر في المرآة . سيصيح به : « أيها الوغد، يا عازف الكمان المتشرد ، أتحسب أنك قادر على التمويه الى الدرجة التي تخدعني بقناعتك الكاذبة ؟ إذا كنت صادقاً ، فامح ما على ورقتك التي اخرجتها من صدرك ، وعندئذ فقط يتحول سلوكك كما كان ، قبل أن تكون هي ، قبل أن يكون اللقاء، وتعود ورقتك بيضاء، كما كانت قبل الكتابة ».

نظر ديمتريو الى ديمتريو في شكاة صامتة : لماذا تتهمني ؟ أنت تعلم أنني لم أكتب شيئا على هذه الورقة ، ولم أرسم عليها خطا ، صدقني ، اقسم لك فصدقني . . حسنا . . أنت لا تصدقني ، أنا نفسي لا أصدق نفسي ، فما دام على ورقتي رسم ، فلا بد أن يكون ثمة رسام ، هذه بدهية يا توأمي ، يا ذاتي ، وأنا لا اجادل في البدهيات ، لست سفسطائيا ، ولا خياليا ، واقعي أنا ، واقعي أكثر مما يجب . ولم يخطر لي أن انقض المسلمات : واحد مع واحد ، والخط المستقيم ، والعلة والمعلول . . كل هذا صحيح ، وقد عشت على الايمان بهذه الصحة ، ولكن الرسم ، على ورقتي ، لم أرسمه أنا . . الألق المجدلي ، الحصاة المرمرية ، المحارة المرجانية ، والشفاه التي بلون زنبقة الحقل ، لم ارسمها أبدا ، ولا استطيع لو أردت ، وصاحبتها لم ترسمها أيضا ، لا أنا ولا هي ، كلانا بريء كلانا يقول لا يمكن ، والمنطق يقول لا يمكن ، والعقل يقول لا يمكن ، ومنذ أبصرتها قلت لا يمكن .

توقف ديمتريو عن دفاعه ليستزيد من قدرته على الاقناع . استشعر تصاعدا في طاقته المعنوية ، وكمن يحلل نفسه ، خيل اليه أن كشفه عن جذور عقدته قد وضع في يده امكانية حلها . صار واضحا الآن ان الحل رهن بانتصار ارادته على عاطفته ، وكان معتداً بتلك الارادة فأضاف : « اؤكد لك يا توأمي أن الأشياء ستكون كما أريدها . واذا كانت عاطفتي قد ربحت على ارادتي ، فان ارادتي لاتستسلم للهزيمة . انها تصارع . . انا اصارع ، لأنني مقتنع . ومن الغد احول قناعتي الى سلوك ، كالذي كان ، قبل ان تكون هي ، قبل ان يكون اللقاء ، وتعود ورقتي بيضاء ، كما كانت قبل الكتابة .

كانت امامه ، على الورقة ، ابتسامة . تناول ممحاة واستعد لمحو الابتسامة ، لكنه احتار من اين يبدأ ، ما يريده هو اطفاء الألق المشع في تلك الابتسامة ، وسيفعل بغير تردد ، وكل ما عليه ، لكي ينجح ، ان يكتشف منبع الألق ، وينقض عليه بممحاته ، فيزيله ويستريح .

ايها السيدات والسادة ، يا من عانيتم كما أعاني ، هل تعرفون ، في ثغر شفتاه بلون زنبقة الحقل ، وتكويرته اللوزية محارة مشقوقة عن حصاة لؤلؤية ، من أين ينبع ألق الابتسامة ؟ أنا واقعيّ يا أهل مملكتي ، منطقي ، أومن بالعلة والمعلول ، والرسم والرسام ، وأعرف مثلكم ، ان الألق سراب ، لكنني بخلافكم ابحث عن سره ، فهل اهتدى احد منكم الى هذا السر ، واستطاع ان يمحوه ؟

تشيرون الى الشمس؟ الم أقل لكم انني واقعي ومنطقي ؟لاءلاء الشمس لا يطفأ يا سادتي . ستنطفيء هي لذاتها يوما . وهذا بعيد ، بعد ملايين السنين ، وأنا أسألكم عن شمسي ، عن الابتسامة التي في ورقتي ، من أين ينبع لألاؤها ؟ بين الشفة والشفة وميض برق ، فمن قبض منكم على وميض برق؟ ثغر دليلة كانت له شفتان ايضا ، بينهما لذة وسم ، وثغر الجوكندا له شفتان ، تنث منهما قداسة . شيء يدعو الى الراحة والطهر ، وهذا المرسوم على ورقتي ، يختلف . لاسم ولا ترياق ، زاويتا قوسين شفويين ، ينفرجان عن ابتسامة ، وابتسامة تضيء ، وأنا أبحث عن مصدر الضوء ، عن سره .

« حسنا ـ قال ديمتريو ـ سأمحو الشفتين معا ، ما دام منبع الألق محصورا فيهما » .

قالها بتأكيد ، وقد استشعر حاجة ، كنداء الثأر ، الى محو الشفتين اللتين امامه على الورقة ، فلما رفع رأسه فجأة ونظر في المرآة ، التقى ديمتريو الآخر ، الذي سأله بهدوء وتهكم :

ـ ماذا تنتظر ؟ تخاف ؟ يا لك من جبان ، آه يا توأمي العزيز ، أنت تخدع نفسك في غير طائل ، ولو أدركت أن ما تردده من عزم على محو الابتسامة وهم ينشد عزاء مسكينا لأرحتني واسترحت . . القِ بالممحاة من يدك . القها وامض غدا ، كاليوم ، كالأمس ، في سلوكك المألوف ، العاجز ، التابع فالذين يمحون أقدار البسمات والعبرات ، يملكون اصابع غير اصابعك .

نكس ديمتريو رأسه معترفا بصدق وعدالة هذا الحكم . لم يكن بحاجة اليه أصلا ، فهو يعيش منذ شهور ، يبني الهيكل في المساء ، وينقضه في الصباح ، « آه يا آهة اليونان ـ هتف ـ صخرة سيزيف ارفع؟ أنا لم افش سر النار ، ولم أعشق آهة من الأولمب . وما أنشده بسيط : قضاء ما تبقى من رحلة العمر في هدوء وسلام ، بعد أن ودعت الصبا وحسبت ألا معاد ، فالشجرة قد دب فيها اليباس ، لست بستانيا ، ولا أعرف أن الشجرة تخضرّ بعد يباس ، وها هي الشجرة تخضر بعد يباس » .

كم يدوم هذا؟ لا تسألوا . . المعجزة تحدث أحيانا ، واذ تحدث ، في غير أوانها ، تكون معجزة المعجزات . وعلى فراش الموت ، قبل الغروب الأبدي ، دعاني يوما رجل وقال لي : « اعزف شيئاً من ألحانك ياديمتريو ، احس ان زهرة جديدة تتفتح على غصني » قلت : « سمعا يا سيدي » ولم أعزف ، حسبته في هذيان النزع ، وتهيبت دموع الأهل ، لكنه مد يده النحيلة ، الصفراء ، المعروقة الأصابع ، وأمسك بيدي وقال : « ديمتريو ! الخطاب آت لقطع الشجرة . اسرع . ساعد زهرتي الأخيرة على التفتح قبل أن يفوت الأوان . انا سعيد يا ديمتريو لأن شجرتي ستقطع وهي خضراء . كذلك اردتها وكذلك كانت واتمنى لشجرتك أن تكون مثلها ، كما أتمنى لك ، من بعدي ، طول البقاء ، ولكن اتمنى لك بقاء أخضر ، يزهر حتى النهاية ، فهل تعزف قليلا كرمى لخاطري ؟» .

عزفت . .

كماني تبلل بدموعي . ترطب الخشب وصار أرخم ، صار اعمق . وأزهر الغصن ، واللحن أزهر ، ومضيت أعزف ، دون انتقاء ، دون عناء . أحسست أن زهرة ما ، في داخلي ، تتفتح

ايضا ، وأن الربيع قد ألغى الشتاء، وانه يجري في يدي وقوسي وكماني ، وجدت في نفسي شجاعة فائقة على مقاربة الموت ، على ملاقاته . صار الموت انعم ، مخملي الملمس ، ومرّ بقربي ، وحطّ على صدر صاحبي ، وتسلّل اليه رفيقا، هادئا ، كالنوم عقب النعاس، ولم أشعر بشيء. ولم أع ما حدث الا عندما تقدّمت زوجته وربتت على كتفي قائلة :« توقف يا ديمتريو . .قضي الأمر» . .

نظرت الى الرجل . . كان يبتسم وقدمات. الشجرة الخضراء ظلت خضراء حتى قطعت.

وقد نسيت الرجل وأمنيته مع الأيام . لم أكترث لما قاله وهو على الخط الدقيق الفاصل بين الحياة والموت . ذلك أن امر الشجرة لم يعنني كثيراً . فحبي الأخير ، كايماني القديم ، كغصني الذي كان مليحا وانثى ، كصورتي يوم لا بياض ولا غضون ، كموداتي التي سلفت ، كولدنات يفاعتي التي يبكي عليها وقار كهولتي، انقضى، مضى، خلفني وحيدا امام النار المنطفئة ، امام العدم القاسي الزاحف نحوي بعيون باردة . ولم اكن ، يا اخوتي، صانع معجزات ، ولا ساعدت، مرة، معجزة على الحدوث، وحكاية الاخضرار بعد يباس لم أحفظها، لم تكن لي علاقة بها ، انا الذي عرف الهوى حتى ملّه، لأنه ابدا لم يروّضني ، لم يحتفظ بي أسيرا في قبضته، ولا جعلني أتألم حتى البكاء.

ولأني نشأت محروما من نعمة الألم في الحب فقد نبذته ، خيل الي انني تجاوزته ، او أنني لم أعرفه ، لأنه ، حين كان يأتي ، خفيفا كالصداع الذي يداوى بحبة مسكن ، أو كالشهية التي تخمدها لذة وجبة ، كنت أغمض عيني وأنام ، وكان الصباح كفيلا بأن يجعل في الماضي ، ما كان مساء في الحاضر ، حتى اذا بزغ نجم جديد، كان يكفي ان ادير له ظهري لأنساه ، أو أدخل بيتي حتى لا يعود له تأثير في.

وحين رأيت هذه الابتسامة ، ذلك اليوم ، حسبتها احدى تلك النجوم البعيدة ، التي يضحك من حرارتها السائر في الصحراء. غير أني كنت مخطئا، وأنتم تشهدون على خطئي ، وأنا أرغب في محو هذه الابتسامة ، وأنتم تشهدون على فشلي ، فمن منكم يدلني على مادة كيمائية تعيد ورقتي بيضاء كما كانت؟ الزمن تقولون ؟ لا . . الزمن يحيل الأشياء الى ذكريات وأنا ألعن الذكريات ، أمقتها ، أمقت ومضة الاسترجاع هذه، التي تعيش فيها الكفّ الخالية على وهم ما كان ، وينضفر الجسم ، في شراسة ليالي السهد ، على أشباح اجسام .

وحتى لو ملكتم هذه المادة الماحية ، وجربتم أن تساعدوني، لما غفرت لكم بقية عمري . . لا تصدقوني اذن، انا ديمتريو الذي يعيش مأساته المروعة . إن ذاتي لا تصدق ذاتي وديمتريو الآخر لا يصدقني، يصيح بي : « كُفّ عن عبثك . توقّفْ عن محو ما في ورقتك ، وأعدها الى صدرك ، ثم احمل كمانك واذهب الى تلك السيدة واعزف لها أناشيدك » .

توقف ديمتريو عن عملية محو الابتسامة . كانت يده ، في أصابعها الثلاثة المضمومة ، قد حكت الورقة طويلا فتصلبت شرايينها . ولم يعاود النظر في المرآة . أحس بعداء نحو توأمه الذي سيطالعه فيها . كان هذا التوأم بغيضاً بقدر ماكان حقيقيا ، كان شاهدا لا يمكن حذفه ولا خدعه ولا اسكاته . . وفي فترة الاستراحة ، ريثما يعود الدم الى الأصابع المتيبسة ، راح ديمتريو الآخر يتحدث . . .

في ذلك الأصيل كانت السيدة تقرأ في كتاب . وكان زوجها يعالج طائراً مكسور الجناح . وكنت أنا اعلم طفلها العزف على الكمان . . لقد استدعيت لأداء هذه المهمة وقبلت ، وعبرت الصالون الى الغرفة ، وبعد الانتهاء عبرته الى الباب ، وحييت بأدب وخرجت لم يبق في ذهني، ذلك الأصيل من هيئة البيت سوى البوق من قرن الايل ، وموقد الحطب ، والزوج الذي يعالج طيرا . وفي الدرس التالي ، حين عبرت الصالون ، كان الزوج في مكانه والزوجة على النافذة فأعطيت درسي وانصرفت .

انقضى على ذلك اسبوعان ، فلما كان الثالث، سمعت ، وأنا أهم بطرق الباب ، عزفا على الكمان . كان النغم شجيا ، ينداح تحت قوس رشيق، ليس لتلميذي بأية حال . تريثت في الدخول . فلما خفت وقفتي المتنصتة، طرقت الباب ودخلت . كانت السيدة تسرع في ايداع الكمان صندوقها ؛ كأنها ترغب عن معرفتي بعزفها ، توقفت على العتبة لأخلع الواقي المبلل، واستقامت السيدة من انحناءتها على الصندوق، ونظرت الي مبتسمة متسائلة : هل سمعت عزفي ؟

الوجه باسم، فيه مزيج من كبرياء ووداعة . ولونه الوردي يشف عن عذوبة جارحة ، والعنق الى طول ، والشعر ذهبي ، مرسل ، وعيناها مضيئتان ، وسطهما نقطة عسل أصهب .

كانت، هي الأخرى، في نهاية الصيف ، في الزمن الذي ينضج فيه العنب ويعتصر . وكالخوخة الصفراء، في عزّ الاستواء، شهية ومثيرة ، وشيء في المقلتين ، كالرضاب ، كالالتماعة في العين الشبقة ، يغزل بوحا ساكنا ، صارخ الفتنة .

حسناً كل ذلك رأيته ، وربما تخيلته ، في تلك الليلة ، وانا تحت تأثير اضطراب لا أدري أكان مبعثه عزفها أم وجهها ، هذان اللذان ، في السمع والبصر ، أيقظا احساسا مبهما من الاعجاب والرغبة، وأحدثا ما يشبه الهزة التي تتشقق لها قشرة الأديم النفسي فتنبجس الأشواق في اندفاعة عفوية.

لقد سبق ورأيتها فلم أتأثر ولم أضطرب . طوال اسبوعين وأنا اتردد على البيت لاعطاء الدروس ، فكيف حدث ولم يلفتني وجهها ؟ هل كان ذلك لأنها كانت مستغرقة في كتابها ، حاجبة عني ملاحتها ؟ ولماذا لم استلطفها في المقابلة الأولى ؟ الأنها لم تكن واقفة؟ ألأنها لم تنظر الي؟ أو لأنها لم تبتسم ؟ يا سيدتي لماذا ابتسمت اذن ؟ انا لا أتهمك ؟ أسمعت يا ديمتريو، يا توأمي ، انا لا أتهم

السيدة لأنها ابتسمت، فهي لا تستطيع الا ان تبتسم ، وأنا كذلك ، لا أتهم نفسي . انا لا أفعل شيئاً يا ديمتريو، ولم اشعل قنديلاعلي شجرتي الخريفية .

دعتني الى اخذ حظ من دفء وكوب من شاي . وقال زوجها مؤيداً دعوتها : « نعم، هذا ما يجب » فقبلت شاكرا ، شاعرا ان لطفا كبيرا يحيطني ، ثم سألتني عن اشياء، وأجبتها بأشياء، ولما أعطيت درسي وخرجت ، تلفتّ بعفوية الى الباب . أحسست فراغا قد حدث، وهفة الى العودة تشهّت، وطغت صورتها على موقد النار وقرن الايل ولم يعد رعي الماعز في الفلاة تشردا حرا ومرجوا لجواب الآفاق . لقد تدجّن الحيوان البري، وصار ينتظر موعد دخول المدجن بحنين لاهف . وفي الليل طفقت الابتسامة تطل، فأدركت بفرح وأسف ، أن قدري يوشك ان يقول كلمته ، وصحت في محاولة للردع ، هذا لا يمكن ، ومنذ تلك الساعة وأنا اصيح لا يمكن وسأظل اصيح، حتى النهاية، لا يمكن . . .

سكت ديمتريو الذي في المرآة ، واستأنف ديمتريو الذي أمامه عمله في محو الابتسامة ، كان يعمل ، الآن ، مدفوعا برغبة لا تقاوم ، في ازالة الابتسامة عن ورقته، لكي يعيدها الى مكانها ، ويذهب الى فراشه فينام ، كما في الأيام الخوالي ، بغير قلق ولا انفعال .

ساعة . ساعتان . ثلاث . . كلت يده اليمنى فجرب اليسرى. عاد الى اليمنى ثم الى اليسرى . . . ظلت الابتسامة في موضعها من الورقة . هي لا تظهر ، لا تختفي ، لا تتحرك، لا تتثبت . يحسها اذ يراها ، ويراها اذ يحسها ، ويعذب نفسه حتى التلف ليجنبها الوقوع في حب بغير جدوى.

تهالك أخيراً تحت ضغط اعياء شديد، دخل في الدائرة الحلزونية المقفلة للجنون الواعي، فتوقف، وهتف من أعماقه :

ـ وبعد . . . لماذا لا انتهي او اموت ؟

واجابه صوت من المرآة :

ـ لأن الموت راحة ، وبينك وبينه مراحل بعد . . لا تتعب ، صخرة سيزيف لن ترفع بهذه الطريقة ، لقمان الحكيم ، ايها الغبي ، هتف بتلميذه وهو يعالج الورم : عليك بالنار يا حمار . . إكوِ . . أحرق ، الحق الأصل .

قال ديمتريو متوسلا : «اعد علي ما قلت يا توأمي العزيز . . أنا لا أفهم . . انا في حال لا تسمح لي بأن أفهم . . اسمع ولا أفهم، فترفق بي، وقل لي، ماذا أفعل ؟ أين الأصل وأين الفرع ، وما شأن حكيمك الفاني فيما انا فيه من بلاء؟».

تحركت الورقة ، أمامه ، وندّ عنها صوت يقول : « انا هو الفرع » وخشخشت ورقة ما ، في رأسه ، وندّ عنها صوت يقول : « انا هو الأصل » فنظر ديمتريو الى ديمتريو وتنفس بارتياح ، كمن ألقى عن كتفه جبلا من الصوان، وقال متواضعا : « الآن فهمت . . . شكرا . . لقد فهمت . . كان علي ، منذ البدء أن أفهم ولكن حالي كما ترى، اعذرني ».

لف الورقة على شكل قلب وأعادها الى مكانها . ماذا ينفع الانسان أن يمحو اذا كان ثمة من يكتب ؟ الدماغ يملي والقلب يملي عليه ، وبدون اصلاح الدماغ لا يمكن اصلاح القلب. تلك بدهية يا ديمتريو، وأنت مولع بالبدهيات. تأمل كيف فاتك ان تلاحظ مسألة بهذه البساطة لا تضيع الوقت ، اترك القلب وعالج الدماغ ، احرق السرطان الذي هناك ، وعندئذ يشفى الأصل، فتشفى، بدورها، الفروع .

نزع طاسة رأسه، وأخرج المخ الهلامي، اللزج، فوضعه في صحن أمامه ، وتركه معلقا بالرأس بعرق كالمشيمة . كان يتوقع ان يرى فيه ندبة ما ، بثوراً ، ورماً ، فيعالجه بمكواة اللحام التي استحضرها . سيبرهن للقمان أنه ليس حمارا مثل تلميذه، وانه يعرف أن يحرق السرطان ويجرؤ على ذلك ، ثم يذهب في اليوم التالي لتعليم تلميذه، بسلوك كالذي ذهب فيه للمرة الأولى. غير أن مخه كان صحيحا . خاليا من كل أثر ، وكان على قلبه ان يكون صحيحا كمخه . هذا قانون الأصل والفرع ، وهو قانون منطقي الى درجة ان اختلاله سيكون اختلالا للكون ونهاية له . ماذا تفعل الآن يا ديمتريو ؟ حذار أن تعبث بمخك. قلّبه، هكذا، بلطف، بتؤدة. افعل ذلك مرة ، ومرة ، وثالثة . يئست؟ اذن أعده الى مكانه، وامض صباحا كما رجعت مساء، حاملاً تعاستك مرسومة بحبر لا يمحى . لا تقل بعد اليوم لا يمكن . . كل شيء ممكن حين نريده أن يكون ممكنا .

صاح ديمتريو بديمتريو : « ولكني لا اريد، قلت لك مئة مرة، لماذا لا تصدقني ؟ لقد تعذبت الليلة بما فيه الكفاية ، لأثبت لك بأنني لا اريد، افلا تسمع ما أقول ؟».

قال ديمتريو: « بلى اسمعك ، ولكني لا أصدقك. أنت تريد ولا تعرف أنك تريد، هذه هي المشكلة، حدق في مخك واخبرني ما ذا ترى فيه ».

فعل ذلك ديمتريو فلم ير شيئاً .

ـ آه يا عزيزي! قال له توأمه . ما كل من له اذنان للسمع يسمع ، وما كل من له عينان يري، افتح ناظريك جيدا. فقد خلقا لكي يفتحا ، وخوفك أغشى عليهما . اهدأ . تمالك اعصابك . حين يكون في المخ شيء فلا فائدة من تجاهله . الأجدى ان يعالج ، ان يكوى ، أو يستأصل . لقمان ، قبل آلاف السنين ، أدرك هذه الحقيقة وعمل بها ، وانت تجهلها أو تتجاهلها . لا احد يصاب في مخه ويعالج من أطرافه فيشفى. اذا فسد الرأس فسد الجسم. عالج رأسك أولا واذا عجزت فاقطعه. هيا . . جرب مرة اخرى.

جرب ديمتريو ولم يفلح . لا شيء في المخ . ومع ذلك غدا واثقا

أن فيه شيئا . قال بتسليم :

ـ أنا لا اجد شيئا في مخي . فشلت في العثور على هذا الشيء وبحاجة الى من يدلني عليه، فهل تفعل؟

قال ديمتريو الآخر : أن أدلك عليه فهذا بسيط . احسب أنك تتكلم بشكل معقول الآن . يبقى أن العلة لا تزول بمجرد الاهتداء اليها . ولقد هديتك منذ البدء الى علتك بل انك تعرفها بنفسك وتتجاهلها ، تكابر في أمرها ، فأي أحمق أنت ؟

هز ديمتريو رأسه موافقا ، غدا أحمق في نظر نفسه ، هو مضيّع ومعطّل عن مواجهة شؤونه و مباشرتها . وهذه الليلة ، بالنسبة لعمره كله ، جديدة ورهيبة . ظنّه أن عالمه الداخلي جليّ، نقيّ، كغرفة مشمسة كحديقة حسنة التنسيق، وما صدمه وأوقعه في هذا الاضطراب، ان هذا العالم مليء بالكهوف والسراديب وأنه يجوس خلل ظلمات ، فكيف حدث ولم يفطن الى ذلك ؟ كان عليه، في اعوامه الطوال، أن يفتح رأسه ويعرض خلاياه للشمس .

ـ حسنا ـ قال ـ أنا مستعد يا توأمي ، فأخبرني أين هي العلة في مخي ؟

ـ أنا لم أقل ان في رأسك علة .

ـ طيب، سرطان، ورم، تشوه .

ـ لا شيء من ذلك . .

ـ وماذا هناك اذن ؟

ـ انظر . . .

كانت على الجهة المقابلة من المخ ، شفتان تبتسمان فصاح ديمتريو: «يا إلهي ماذا أرى؟ ما ذنبي لديك ؟ ولماذا اذن، أعذب نفسي ؟» وباندفاعة مجنون ، رفع قبضتيه وأهوى بهما على المرآة، ليتخلص من السخرية القاتلة في الوجه المقابل . عندئذ حدث ارتطام ضج له البيت كله ، وتناثرت شظايا الزجاج مفرقعة على أرض الغرفة ، وانبجس من أصابعه وراحتيه سائل مشع ، ونفر من وجهه وعنقه وصدره وراح يتساقط قطرات على الطاولة والسرير والأرض، وأخذت القطرات تتفتح ابتسامات كالشموس الصغيرة ، تشع فتبهر عينيه، وكلما حاول ان يطفىء احداها ، تناثر السائل فتفتحت عشرات الشموس من عشرات النقط، حتى حاصرته من كل جهة ، وتداخلت اذ تكاثرت ، وتحولت الى لهب شمسي غطى ما حوله وانشأ يتدفق كالماء في قاع سفينة تغرق ، ويتصاعد ويغمر جسمه .

هتف ديمتريو بديمتريو:

ـ يا توأمي يا صديقي . . انا احترق . . أغوص في اللهب وأحترق، أنقذني. وكعادته، قهقه الآخر ساخراً ولم يفعل لأجله شيئا. عاد يصرخ به :

ـ ايها المسكين . . انفقت عمرك في طلب هذا الشي ، فلما صار لك خفته؛ وكذلك يفعل العاجزون ، يحبون ويخافون الحب ، يتكلمون على البركان ، ويضعون أصابعهم في اذانهم اذ يحدث، ويشتهون العاصفة، فاذا اقتربت ناحوا كطيور الزمج . . انت منافق مثل تاو ، ذلك الذي كان يحب التنين ، ويملأ بيته بصوره ، فلما خرج التنين من الصورة ، ولول واستغاث ، واستنجد بخدمه لقتله . . . بدمعك على أنين الكمان ، كنت تسقي شجرتك ، فلما اخضرت خفت اخضرارها . . خفت هلاكك فيها .

ـ ولكنني أهلك . . انا الآن أهلك . .

ـ وستظل تهلك . . ستحترق كلك . . هاك اللعب يحاصرك . . ها هو على رأسك، في الجانب الأيسر من صدرك ، فوق كتفيك ، تحت قدميك ، يغمر قدميك ، يغمر ساقيك . . اهرب . . اهرب . .

صعد ديمتريو الى السرير فتصاعد اللهب السائل وأغرق السرير . قفز الى المكتب فاشرأب اللهب اليه . لم تبق الا الخزانة ، فارتقى سطحها ، واذ غرقت بدورها تعلق بالثريا ، وتطوحت قدماه كمشنوق ، وتشنجتا الى أعلى، في محاولة مستميتة للنجاة ، ولكن ألسنة اللهب ادركته ، فأطلق صيحة استغاثة وهوى، ثم قفز بكل قوته المتبقية ، نحو الباب . . فتحه وفر هاربا ، تتبعه طاسة رأسه ، وقطرات الدم المتناثرة ، والشمس المتفتحة ، والسائل اللهبي جعل يعدو وهي في أثره ، وطفق يصيح ، ويبكي ، ويستجير، ولكن أحدا في الشارع ، والمدينة ، والمدن الأخرى ، لم يسمعه ، ولم يأت لمساعدته .

ظل يعدو هكذا أياما . واذ كان على احد المنعطفات ، واجهته مرآة مما يوضع لتجنب اصطدام السيارات ، فرأى صورته فيها ، رأى ديمتريو الآخر ينظر اليه شامتا ساخرا كعادته ، فاندفع نحوه هاتفاً :

ـ انقذني ! انقذني !

ـ وضج الفضاء بقهقهة كالرعد ، وسمع صوتا كالنذير :

ـ أيها الأبله ! . . أين المفر ؟ وكيف تهرب بذاتك من ذاتك ؟ . . انت تشتعل من الداخل ، ومن الداخل تنطفىء . . عد الى غرفتك ، واقلع عن المحاولة . . دع الابتسامة في صفحتك فقد ارتسمت وانتهى الأمر . ارتسمت لأنك اردتها ، وهي باقية لأنك تريدها ، وخوفك منها لن يزيد الا في تأججها . أنت تصرخ بشفتيك : « لا يمكن » وتضمر في سرك : « يمكن » ولهذا فلن تتحول قناعتك الى سلوك كالذي كان ، قبل ان تكون هي ، قبل ان يكون اللقاء، ولن تعود ورقتك بيضاء، كما كانت قبل الكتابة عليها [1] .

---

(١) الفصل الأول من رواية «مأساة ديمتريو» تأليف حنا مينه، تصدر هذا الشهر عن دار الآداب .